الدفاع الاجتماعي في النظم الدينية السماوية

أ. م. د. صلاح كاظم جابر الباحث محمد قاسم محل
جامعة القادسية – كلية الآداب

إذ ما حاولنا إسقاط مفهوم الدفاع الاجتماعي على الشرائع السماوية التي نزلت قبل نشوء مفهوم الدفاع الاجتماعي بما لا يقل عن ١٣٠٠ عا . فإننا سنجد إن مجموعة المبادئ والأغراض والأهداف التي يعتمد عليها الدفاع الاجتماعي اليوم بما وصل إليه من التطور العد ي والتراكم المعرفي متناثرة بين الآيات والتعاليم الدينية فضلا عن القيم التي تكتسب الطابع الديني في الحياة الاجتماعية لأفراد المجتمعات الإنسانية التي نزلت فيها هذه الأديان أو تلك التي انتشرت فيها بنسب ديموغرافية معينة اذ ان الأديان تنطوي على انساق أو أشكال مثل مجموعة من الأنماط السلوكية التي يحبذ أن يسلكها المؤمن من اجل نيل رضا الله والجنة وتجنب سخطه وغضبه ونار السعير في الحياة الأخرى .

كما انه هنالك العديد من الأديان غير السماوية تنادي بمثل هذه المبادئ الإنسانية بقصد الدفاع الاجتماعي أو بقصد الحفاظ على التنظ يم الاجتماعي الديني قبل التنظيم الاجتماعي العام في المجتمعات الإنسانية ككل والتي نزلت أو نشأت فيها هذه الأديان فعلم الاجتماع يعترف أكثر من أي علم آخر بان الدين يعد واحدا من أهم العوامل المساعدة على التماسك الاجتماعي في الجماعة الاجتماعية المؤمنة بل بل ان يتعدى في الكثير من الأحيان هذه الوظيفة إلى غلق الجماعات الاجتماعية التي يتألف منها المجتمع فهو يعمل بالتالي على بقاء المجتمعات واستمراريتها على مدى الزمان وطول المكان وحمايتها من الانحراف والجريمة والتفكك الاجتماعي فضلا عن إن الدين يعد واحدة من أهم المؤسسا ت الاجتماعية المؤلفة للبناء الاجتماعي لجميع المجتمعات الإنسانية على مر الزمان وعلى طول المكان في ذات الوقت .

مشكلة البحث

لماذا النظام الديني؟ سؤال لطالما واجهه الباحث في دراسته للدفاع الاجتماعي الذي يعد من الافكار العلمية الإنسانية الحديثة الذي نشا في مجتمعات علمانيا . فلماذا الدين؟ دابنا على الحصول على مكتسبات العلم من هذه المجتمعات ونقل التجربة كما هي امر مشكوك في نجاحه نظرا لتمييز مجتمعنا العراقي العربي المسلم الشرقي بالخصوصية الاجتماعية والثقافية . وهو بالضبط ما دفع الباحث الى اختيار موضوع بحثه الذي تراكز في التساؤلات الاتيا :

١ - هل يمكن ان ياخذ النظام الديني فاعليته المعهودة في الدفاع الاجتماعي

٢ - ما موقف التعددية الدينية من عمليات الدفاع الاجتماعي .

٣ - هل هنالك قيم مشتركة تهتم بعملية الدفاع الاجتماعي في الأديان ذات الأصول المشتركة كالأديان السماوية .

٤ - ما موقف العلم من التعددية الدينية في مجتمعات توسم بانها متدينا .

اهمية البحث

تكمن اهمية البحث في ما تتضمنه الاديان السماوية من نظم دينية تهتم بمبادئ الدفاع الاجتماعي بالنقاط الاتية :-

١ - ان الدين واحدا من اهم الفواعل الاجتماعية في المجتمعات الشرقية التي تعد بطبيعتها مجتمعات متدينة

٢ - ان الدين و النظام اليمي الديني واحدا من اكثر العوامل الاجتماعية فاعلية في التاثير على نمط انتاج السلوكيات الاجتماعية داخل المجتمعات الاسلامية والعربية والمجتمع العراقي منها بشكل خاص .

٣ - إمكانية استغلال القوة التي يتمتع بها الدين في عمليات الإصلاح الاجتماعي للفرد والمجتمع .

٤ - ان حماية الفرد والمجتمع من الانحراف والجريمة يعد من الاهداف المشتركة بين الأديان جميعها و بين الدفاع الاجتماعي كحركة إصلاحية إنسانية .

اهداف البحث

يمكن اجمال اهم الاهداف العلمية التي توخاها الباحث من دراسة النظم الدينية الس ماوية و دورها في عمليات الدفاع الاجتماعي بالنقاط الآتي :-

١ - بيان ان هنالك قيم انسانية مشتركة بين الاديان جميعها لاسيما الاديان السماوية

٢ - بيان العلاقة بين هذه القيم الإنسانية المشتركة و بين مبادئ الدفاع الاجتماعي .

٣ - بيان الأصول الدينية للنظام الديني في المجتمع العراقي بالاستناد الى النصوص المقدسة التأسيسية .

٤ - بيان ان عملية الدفاع الاجتماعي التي تتطلب تكاتف الجهود جميعها لا تنجح في المجتمعات المتدينة الا اذا اخذ الدين فاعليته في هذه العملية ايضا

المبحث الأول . الدفاع الاجتماعي في النظام الديني اليهودي والمسيحي :

الجريمة ظاهرة اجتماعية قبل أن تكون مفهوماً قانونيا فقهيا تتناوله الشريعة والقانون بالدراسة العلمية . ولها صفة الإلزام والاستمرار بل إن لها كل مواصفات الظاهرة التي جاء بها إميل دوركهايم . فالجريمة مفهوم اجتماعي بمعنى أنها فعل يقع من فاعل يصدر منه بشكل من ا شكال عن قصد وتخطيط او بصورة عفوية او مصادفة ، على مفعول به يتضرر منه بأي صورة، فيكون له ولذويه الحق في الرد المحدد اجتماعيا على الفعل الذي ولد الضرر الذي وقع ورد الفعل هذا ما يعرف اجتماعياً وشرعياً وقانونياً بالعقوبة . وإن تناولنا الجريمة والعقوبة من وجهة ال نظر الدينية القائمة على ما جاء في الشرائع السماوية من القيم والقواعد الدينية تكون عنصراً أساسياً في التنشئة الاجتماعية السائدة في المجتمع فضلا عنها أساس في جميع القوانين الوضعية الفاعلة في هذه المجتمعات كما هو الحال في المجتمع العراقي الذي يعتمد على الإسا م كدين كواحد من أهم مصادر التشريع .

أن ما جاء في أسفار العهد القديم الذي يصف الحاجة الاجتماعية للعقوبة الدينية و الدنيوية المتمثلة بالقصاص وضرورة هداية المخطئين في عصور موغلة في القدم التي تحتوي عليها شرائع الرسل القدماء كنوح وآدم ومنها ما تحتويه شريعة الله لموسى الذي أرسل إلى لليهود . هو أن القتل والزنا وغيرها من الأفعال التي تهدد البناء والتماسك الاجتماعي في المجتمعات آنذاك كان على رأس قائمة الجرائم والخطايا . وأن أول جريمة ذكرت في العهد القديم وفي القرآن الكريم وهي قتل قبيل أخاه هابيل . وعقوبة هذه الجريمة

النكراء في الأرض الطرد من الهيئات الاجتماعية التي ينتمي إليها القاتل والحرمان من حمايتها إياه، فيصير قتله مباحاً لكل من يجد.

ولما كانت جريمة القتل تهدد كثرة النسل التي كان يدعو إليها الرسل من أقدم العهود فإنه جاء في شريعة نوح ما نصه (سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه). وإن الجرائم التي كانت سائدة هي القتل والتحريض على القتل، والسرقة بالإكراه، والجور، وعدم التقوى، والنميمة، والكذب، والدنس، واستراق السمع، وغش الموازين، وسلب المعابد، واغتصاب الأراضي. وأن هذه الجرائم كان يعاقب عليها بعقوبات شديدة القسوة في الحياة الدنيا فضلا عن العقوبات الأخروية وكان الجلد والتعذيب عقوبتين شائعتين في تلك العصور القديمة [1].

ويحتوي سفر الخروج ثاني سفر في العهد القديم من الكتاب المقدس في إصحاحه العشرين، على الوصايا العشر التي يتكون منها الجانب الاجتماعي في لوح وصية الله لموسى يحكم بها بين شعبه ومن بين هذه الوصايا التي تعد كتدبير وقائي من تدابير الدفاع الاجتماعي ونواهي عن المعاصي والمحرمات :

> لا تقتل ، لا تزني ، لا تسرق ، لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا تشتهي بيت قريبك ، لا تشتهي امرأة قريبك ، ولا عبده ولا أمته ، ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً ما لقريبك).

وعلى الرغم من إنها اقتصرت على جانب النهي إلا إن لها الفاعلية القصوى في سلوك المؤمنين آنذاك إذ يقابل كل وصية من هذه الوصايا نوع من العقوبات الأخروية التي يسلطها الباري عز وجل على مرتكب هذه المعاصي التي تعد جرائم بحق المجتمع أو الجماعة لاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد أو لا . أما الأحكام التي شمل عليها ألواح شريعة الله لموسى الخاصة بالعقوبات فكانت في سفر الخروج عن النواهي المذكورة وكذلك عقوبات أفعال أخرى ضارة بالمجتمع فهي :

---

[1]- ٠ ساميا حسن الساعاتي ، الجريمة والمجتمع ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، د ، ، ٩٨٣ ص ٥٣ .

- حسن الساعاتي ، علم الاجتماع القانوني ، القاهر ، النهضة المصري ١٩٥١ ص ١٧٢ .

– القتل للقتل العمد، والشروع فيه، والضرب المفضي إلى الموت أو ضرب أو شتم الأب والأم، والإهمال فيما لو ترك صاحب ثور نطاح ثوره دون خيط فقتل رجلاً أو امرأة ولسارق الإنسان والساحرة .

– الانتقام للأذى غير المقصود : (نفساً بنفس، وعيناً بعين، وسناً بسن، ويداً بيد، ورجلاً برجل، وكياً بكي، وجرحاً بجرح، ورضاً برض).

أما بالنسبة إ ى الديانة المسيحية فلا لا يخفى على أي منا إن التواصل المستمر والتلاحم الذي لا تنفصم عراه بين العهد القديم والعهد الجديد في التعاليم الدينية هو الذي يدفعنا إلى اعتبار الدفاع الاجتماعي الذي يرد في الديانة اليهودية هو ذات النمط السائد في الديانة المسيحي . وكذلك نجد إن شريعة الإنجيل تقرر ذات المبادئ الأخلاقية وحث الناس على فعل الخير أحسن إلى من أساء إليك .

ولم تقتصر العقوبات في الأديان السماوية على العقوبات الجسدية رد الفعل المماثل) بل تعداه إلى مراعاة أنماط التعقيد الذي تتميز به المجتمعات ففيما يتعلق بجريمة لاغتصاب يقص علينا سفر التكوين في العهد القديم أهمية تقديم التعويض في الحالات التي تحدث أذى أقل ضرر .[٤] كالضرب والكم الذي يحدث عطلاً والسرقة ورعي الماشية في حقول الغير، ومراودة العذراء غير المخطوبة أو مواقعتها ثم رفض أبيها أن يزوجها للفاعل . في حين يشتمل سفر الأوسيين على النواحي المتعلقة بالزواج وذلك بتحديد من يحرم الزواج منهن، ويشمل على الأحكام أي العقوبات التي تقع في حالة الزنا بالمحارم والزنا بأمة مخطوبة، والزنا بابنة الكاهن . وغيرها الكثير من التعاليم الدينية الأمر الذي يوحي إلى الباحث بان الأديان السماوية نادت بالأسس الإنسانية في معاقبة المجرم أو مرتكب السلوك الانحرافي والحاجة إلى الإصلاح اكبر بكثير من الحاجة إلى العقوبة أو استصال المجرم من الحياة الاجتماعية بنحو يمكن أن يترك له هامشا لا باس به للعودة عن طريق الجريمة والانحراف إلى جادة الصواب والالتزام (ديني والاجتماعي .

- ٠ عبد الله الخريجي ، علم الاجتماع الد ؤ ، جد د ، ٩٩٠ صر ٣٤١ .
– المصدر نفسه

أما في سفر التنشئة الذي ينطوي على الأحكام التي تقع في حالات أخرى من الزنا فيما عدا الزنا بالأمة المخطوبة تكون العقوبة الموت قتلاً دون تحديد طريقة القتل [٥] . وفي حالة الفتاة العذراء المخطوبة التي يجدها رجل في المدينة فيواقعها دون أن تصرخ أو تستغيث وفي هذه الحالة يرجم أيضاً من زنى بها أو حرقاً في حالة زنى رجل بامرأة وأمها وزنى ابنة الكاهن . أما في حالة الزنا بأمة مخطوبة فإن التأديب يكون عقوبة كل من المرأة والرجل، وفي ذلك تفرقة بين زنا المرأة الحرة المتزوجة وعقوبته القتل، وزنا الأمة المخطوبة وعقوبته التأديب [٦] .

وفي سفر العدد هناك حكم إجرائي بالغ الأهمية بخصوص الزوجة التي يتهمها زوجها بالخيانة الزوجية وذلك لوجود حكم إجرائي لهذه التهمة الخطيرة في القرآن الكريم، أما حكم التوراة الإجرائي فيسمى شريعة الغيرة وذلك أنه إذا غار زوج على زوجته لسلوكها فاته مها بخيانته مع شخص آخر ولم يكن هناك شهود فيأتي بها إلى الكاهن . وهنا يكون الكاهن بوصفة الممثل الاجتماعي للدين الذي يصدر حكمه على مرتكب السلوك ألانحرافي

أما في أسفار العهد الجديد فقد حرص السيد المسيح أن يبين الحكمة الكامنة في التشريع ويئول معاني تشريعات وك ذلك ليوضح مقاصد التشريع من خلال بيان الروحية والباطنية منـ . وإن التجديد الذي أدخله على الشريعة لم يكن الهدف منه النقض أو الطعن في تلك الشريعة وإنما يهدف إلى استئصال الشر من جذوره متبعاً في ذلك الحكمة المأثورة الوقاية خيرٌ من العلاج) . كمبدأ عام فإن جميع ا لأديان السماوية تحارب الجريمة والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وكذلك المعاصي وكل شيء حرام . فقد حرموا مثلاً تناول المخدرات بكافة أنواعها وبالتأكيد فأن زراعتها التجارة بها حرام . إن ما يخص اليهود في العراق فبعد التطورات التي حدثت بعد قيام الدولة العراقية الحد ثة عا ١٩٢١ ودخول العراق عصبة الأمم المتحدة سنة ١٩٣٢ وبعد احتلال فلسطين وتقسيمها أسقطت الحكومة العراقية الجنسية عن اليهود وهجرتهم الى خارج الحدود بعد أن تعرضوا إلى عمليات قتل ونهب عام ١٩٤١ وبعد قيام دولة إسرائيل باحتلال الأراضي العربية عام ١٩٤٨ هاجروا من ا لعراق ولم يبقى أحد منهم في العراق ومناطقه الجنوبية والوسط والشمال .

---

[٥] – ٠ ساميا حسن الساعاتي ، الجريمة والمجتمع ، مصدر سابق ص ٥٤ .

[٦] - نفس المصد ص ٥٥ .

[٧] – منير بصري ، إعلام اليهود في العراق الحديث ، د ، ، دار الوراق للنشر ، لندن ٢٠٠٦ ص ٣٣ .

المبحث الثاني الدفاع الاجتماعي في النظام الديني الصابئي :

يرى الصابئة المندائيون إن ديانتهم أقدم الديانات السماوية وإنها ترجع إلى آدم (ع) وهم يتبعون تعاليمه ولديهم صحف آدم التي يسمونها الكنزاربا. وإن ظهور الديانات الأخرى بمرور الزمن الطويل وسعة انتشارها على حساب الديانة الصابئية جعل من المؤمنين بهذه الديانة يشكلون نسبة ديموغرافية قليلة جدا في المجتمعات . إلا إن هذا الدين القديم الذي انطوى على الكثير من التعاليم الدينية ذات الطابع الإنساني الذي يحافظ على البناء الاجتماعي للمجتمعات التي يعيش فيه الصابئة المندائيون غاية بحد ذاتها حتى وان كان فيه المؤمنين بهذا الدين هم الأقلية الديموغرافية . فبعث الله نبياً ليخلص دين آدم القديم من الشوائب ويعود بالبشرية إلى دين آدم الأول، وهذا النبي هو يحيى بن زكريا (ع). هنا نجد هنالك الكثير من التوافق في أهمية احترام القيم الإنسانية الاجتماعية في كل من التوراة و الإنجيل الكنزاربا التي تتفق إلى حد بعيد في رواية قصة ولادة يحيى بن زكريا في سورة مريم .

وفي القرآن الكريم ورد ذكر الصابئة في ثلاث آيات . قال تعالى في سورة البقرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

وفي قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١٠] .

وفي قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١١] .

يؤمن الصابئة بوحدانية الله، وإنه انبعث من ذاته، وانبعثت الحياة من لدنه وهو واحد لا شريك له وهو وحده مرجع كل شيء ومنتهى كل قصد[١٢] .

---

[١] - صادق عبد علي الركابي ، لمحات عن أديان العالم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مطابع الشرطة ، ٢٠٠٧ ص ٣٦٥ .

[١٠] - سورة البقرة - الآية ٦٢ .

[١١] - سورة الحج - الآية ١٧ .

[١٢] - سورة المائدة - الآية ٦٩ .

[١٣] - نفس المصدر ص ٣٦٧ .

وجاء في كتابهم المقدس الصحف الأولى باسم المحب العظيم وهو الملك الأزلي ثابت عرشه عظيم ملكوته لا أب له ولا ولد ولا يشاركه في الملك أحد، مبارك هو في كل زمان مسبح هو في كل زمان موجود منذ القدم، باقي إلى الأبد، أبدي ليس له نهاية، وأزلي لـ يس له بداية . وفي كتاب الصلاة : الحمد لله مسبح ومبارك ومعظم بـ لوقار والجلال . الله الرب العلي . سبحانه ملك النور السامي، لا حدود لقدرته، النور البهي، والضياء الساطع، لا يلد . ولا شريك له في سلطانه، من يعتمد عليه لا يخذل ومن يذكر اسمه بالحق لا يخيب [٣] .

يؤمن ا صابئة أسوة بالديانات السماوية الأخرى بالحياة الآخرة وبمبدأ الثواب والعقاب الذي وضع ميزانا للأعمال الإنسانية في حياتهم الاجتماعية في كل ما يرتكبونه من سلوكيات اجتماعية وعندما يموت الإنسان يحاسب على عمله، فإذا كانت أعماله صالحة تذهب روحه إلى الجنة وإذا كانت أعماله سيئة وخبيثة تذهب إلى الجحيم بسبب أعماله الإجرامية كالقتل والردة والزنـ . وهنا لا يجد الباحث بدا من الإشارة إلى إن التعاليم الدينية الصابئية تؤجل العقوبات الدينية الدنيوية إلى الحياة الأخرى بسبب كونه في اغلب الأحيان يعيشون في اغلب المجتمعات كأقليات د نية يلزمهم دينهم بالخضوع إلى عادات وأعراف وتقاليد وأنظمة وقوانين المجتمعات التي يعيشون فيها حتى وان كان ذلك على حساب المصالح الدنيوية الخاصة .

كما تشترك الديانة الصابئية مع الديانات السماوية في قصة الخليقة حيث خلق الله آدم أبو البشر من تراب على صورته وخلق من ضلعه حواء ثم أنزل الروح القدس في جسدها وأمر الملائكة بالسجود إلا إبليس الذي قال خلقتني من نار وخلقت آدم من تراب فكيف أسجد له فطرده الله من الجنة [٤] .

وهذا ما يدل من وجهة نظر الباحث ان هنالك من المشتركات الإنسانية التي تأخذ طابعاها الديني أكثر وأعمق من الا ختلافات أي إن هنالك ارتباط وثيق من ناحية الأصول الدينية للحياة الإنسانية في الأديان السماوية واهتمامها بالحياة الاجتماعية للمجتمعات الإنسانية وكذلك ويؤمن الصابئة بقصة الطوفان كذلك تؤمن بالمثل العليا والأخلاق الحميدة والدعوة إلى تهذيب النفس وتقويمها، (باسم الحي العظيم داعي الحي، داعي الله يدعو كل

---

[٣] – لقاء أجراه الباحث مع رئيس مندأ الصابئة في محافظة ذي قار الدكتور سامر نعيم بـ ربيع ١ / ٧ / ٢٠١١ .

[٤] - صادق الركابي ، مصدر سابق ص ٣٦٨ .

إنسان يرقب نفسه، طوبى لمن عرف نفسه، وقومها الله، ويل لمن يسوي الآخرين، ولا يسوي نفسه، ويل لمن يهدي الله ولا يهدي نفسا)) .

وهم يعدون الأفعال التالية من الآثام والتي يعاقب مرتكبها في الحياة والآخرة وهي القتل والسرقة والخداع والزنا وشرب الخمر والتبرج والطلاق وزواج المحارم بما في ذلك الزواج من زوجة الأخ المتوفى، والقسم بالله زوراً والرياء والعمل قبل غسل الجنابة والنظر للمحصنات وشهادة الزور والغيبة والنميمة وخيانة الأمانة والحبس عن دين أي أنها من وجهة النظر الاجتماعية مج موعة من السلوكيات الانحرافية او الإجرامية التي لا يجب أن يقربها المؤمنين بالديانة الصابئية [٥] .

ومما يجدر ذكره في هذا المجال إن أركان الديانة الصابئية هي الإيمان بالله الواحد وبوحيه الذي أنزله على آدم والأنبياء من بعده والإيمان بالحياة الآخرة وبيوم الحساب حي ث تجزى كل نفس ما كسبت . وإن الحياة الدنيا هي عالم فان بينما الآخرة عالم أبدي مطلق . وأداء الفروض الدينية تبدأ من التعميد بأنواعه وأداء الصلاة اليومية ودفع الصدقات التي أمر الله بها، ويرون أنه لا خلاص للنفس من النار إذا لم تؤدى الصدقة (بسم الحي العظيم يا صفياء الله وحدوه والشر لا تقربوه، والصدقة أعطوها . ويشترطون أن الصدقة سرية، حتى أنهم يقولو أعطي باليمنى ولا تدع اليسرى تعل)) .

ويرى الصابئة أن كتبهم المقدسة قد توارثوها بصورتها الموجودة من آدم أبي البشر ومنها انحدرت إلى نوح عليه السلام وبعد الطوفان إلى سام ثم إل ى ولده دام ومنها إلى إبراهيم الخليل عليه السلام فموسى الكليم فيحيى بن زكريا . ومن أهم الكتب الكنزاربا أي الكتاب العظيم ويقال له سرد آدم أو صحف آدم، وتنحصر مباحثه في ذكر الخليقة والتطورات التي حدثت للبشر وفي صفات الخالق والوعظ والإرشاد وكتاب (سدرا دشتامئ)). وأنهم يـ تقدون بأنه أنزل على آدم أبو البشر وأنه أساس الديانة الصابئية . فالصابئة المندائية هي أقدم ديانة سماوية على وجه الأرض وأن كتبهم هي صحف سادة البشر الأولين آدم وشيت وإدريس ونوح، وهذا يرفعهم إلى مصاف الأديان والشرائع الموحدة في التأريخ [٦] .

---

[٥] – ٠ أحمد الخشاب ، علم الاجتماع الديني مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العملي ، الاتحاد العربي للطباعة ، القاهر ة ٢ ٩٧٠ ص ٣٠٥ .

[٦] – رشيد خيون ، الأديان والمذاهب بالعراق ، مطبعة روح الأمير ة ، بدون سنة نشر ص ٢١ .

هجر الصابئة المندائيون نهر الفرات بعد مقتل النبي يحيى (عليه السلام) ويسمى بالمندائية (يهيا) بسبب اضطهاد اليهود لهم، وتوجهوا في هجرتهم إلى جنوب العراق حيث الأرض الخصبة والأنهار الجارية الكثيرة . وقد وجدت أول فخارية في منطقة (تل الطيب) قرب العمارة يعود تأريخها إلى ما قبل الفتح الإسلامي للعراق وعليها كتابات مندائية مكتوب عليها باللغة المندائية وهي عبارة عن أدعية دينية يكتبها رجال الدين الصابئيين على أواني ويضعها الفرد الصابئي في بيته لوقايته من الشرور [٧] .

تبلغ نسبة الصابئة في العراق نحو (٠,٣ %) ينظر جدول رقم (١) من مجموع سكان العراق . وتبلغ نسبتهم في محافظة ذي قار (٠,٣ %) أي نسبتهم من مجتمع البحث في جدول رقم (١) من مجموع سكان العراق حسب تقديرات ٢٠٠٧ .

ويقدر مجموع تعدادهم في عموم محافظات العراق (١٥٥٤٠) حسب تقدير ٢٠٠٧ . وأكثر من نصف مجموع الصابئة في العراق يعيشون في محافظة بغداد و قدر عددهم في ٢٠٠٧ نحو ٦٨٥٧٨ نسمة من مجموع سكان بغداد الذين قدر عددهم في نفس السنة (٧٠١٤٥٤٧) نسمة ويتركزون في محافظات البصرة وميسان وذي قار والقادسية ولكن بنسب متفاوتة في جدول (١) وجدول (٢) [٨] .

ان الدفاع الاجتماعي في الديانة الصابئية *. التي تعد من أقدم الديانات التوحيدية على وجه المعمورة . وبما أنها صاحبة رسالة ووحي إلهي وتشريع رباني فبالتأكيد تكون صاحبة عدالة كسائر الأديان الأخرى لأنها تستمد قوانينها التشريعية من مشرع واحد أل هو الله عز وجل . إن الطائفة الصابئية طائفة مسالمة ومحبة للسلام نابذة كل أشكال العنف والجريمة والتطرف فتبتعد عن كل أشكال التكتلات السياسية والحزبية لأنها لا تحب التسلط ولا تحب أي شكل من أشكال الصراعات فلذلك تجدها ترحل من المكان الذي يحدث فيه نزاعات لكي لا تكون طرفاً فيها .

---

[٧] - سمر عبد وحواس ، صابئة العراق دراسة في جغرافية المكان ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب جامعة بغداد ٢٠٠٣ ص ٣٧ .

[٨] - زهراء عز ، التوزيع الجغرافي للأقليات الدينية في العراق ، جامعة القادسية - الآداب ٢٠١٠ ص ١٥ .

* لقاء أجراه الباحث مع الدكتور سامر نعيم حنظل رئيس طائفة رئيس طائفة مجلس شؤون الصابئة المندائيين في محافظة ذي قار بتأريخ ١٥ / ٢٠١١ .

وبما أنها طائفة دينية فقد استمدت كل قوانينها التشريعية من كتابها المقدس كنزا ربا مبارك رسمه) وسنه يحيى بن زكريا مبارك أسمه). لقد أسهمت الديانة المندائية في جعل الفرد المندائي أن يكون ذو شخصية مهذبة وخلوقاً أمام الآخرين ممتلئاً بكل الصفات التي جاءت بها من الابتعاد عن كل المعاصي والمحرمات التي حرمها الخالق عز وجل مقتدياً بإيمانه كقدوة حسنة .

فقد دعت الديانة الصابئية إلى أن يكون الفرد المندائي رحوماً عطوفاً ويكون حراً والابتعاد عن استعباد الآخرين وأن يكون سنداً للضعفاء في الحق كما جاء في كتابنا المقدس لا تسلموا العبيد الصالحين إلى أسيادهم الأشرار ولا الضعيف إلى الظالمين الفجّار) .

كما دعت الديانة الصابئية المندائية إلى ان يتنزه الفرد المندائي بنفسه عن النظر إلى ما ليس له ولا يشتهيه لكي لا يقع في الخطيئة لا تنظر إلى ما ليس لك ولا تشتهوه ولا تبتغوه). كما أكدت كذلك على الصبر عند الإصابة بأي سوء وعدم الاندفاع مع أهواء الشيط ان الذي يؤدي به إلى التهلكة وارتكاب المعاصي إن أصابكم سوء فاصبروا واثبتوا في إيمانكم) . كما نهت الديانة المندائية عن الضغينة والحسد والتفرقة وعن القتل والسرقة لأنها طريق إلى الجريمة ومنها إلى حساب الخالق عز وجل أمسكوا قلوبكم عن الضغينة وإلى التفرقة وأمسكوا أيديكم عن القتل والسرقة).

كما نبهت إلى اهمية بل ضرورة إرشاد المخطاء وإعادته ونصحه والابتعاد عن هذه الأعمال التي تشين من سمعته وتؤدي به إلى ارتكاب المعاصي وإعادته إلى المجتمع . من أخطأ منكم فقوموه وأرشدوه وإن أخطأ ثانية فقوموه وأعينوه فإن أخطأ ثالثة فأرشدوه والصلاة والتسابيح أسمعوه). كما حذرت من الذهاب إلى السحر والمنجمين والمشعوذين والابتعاد عن قول ما لا يعلمون وإدعاء الإيحاء ومعرفة الغيوب فلا يعلمها إلا الله عز وجل .

يا أيها الصادقون لا تقولوا ما لا تعرفون ولا تدعوا الوحي فلا يوحى إلا العلي العظيم وسلّموا أنفسكم بأقصى من الحديد كلمات ربكم الصادق) .

لقد دعى كتابه المقدس بشيءٍ من الشمولية في هذه الصورة لا تكن آنساً لهذه الدنيا الزائلة ولا ترتكب إثماً على الأرض) . (إن اضطهدتم فاحتملوا الاضطهاد بعضكم لبعض مساندين ولا تغضبوا ولا تهاجوا، إن الغضب والهي اج مملوءان بوسوسة الشيطان فانطفئوا نار غضبكم بالإيمان) . ا إن عكازكم يوم الحساب، أعمالكم التي عليها تتوكئون فانظروا إلى ماذا تستندون) . ا إن من لم يرشد أولاده ولم يعلمهم يحاسبه الله، ومن يسعى لهداية أولاده

فلم يهتدوا يحاسبهم الله) . ا ويل للأقوياء المتسلطين ا لسائرين على هواهم الذين لا يعملون خير). ا ويل لسيء القلب إذ يقوده السوء إلى الرذيلة). ا ويل لمن رزقته الحياة ولم ينتفع برزقه بل اتخذ الرزق سبيلاً للخطايا والذنوب) . ا ويل للذين هجروا أبناءهم، إن مثواهم النار الحامي). (تجنبوا ما يثير فيكم الكره ضد أصدقائكم . (لتعمل أيديكم الحسنات ولتعط الصدقات). طوبى لمن كان فقيراً في هذه الدنيا وقد اكتمل عمره بسلام)

وبما أن الطائفة دينية وتستمد قوانينها التشريعية من التشريع الإلهي، فإن التشريع الوضعي يكون مستمداً ومطابقاً للتشريع الإلهي عندهم . وهنا لا نجد بدا من الإشارة إلى إن النصوص الدينية الواردة في أعلاه هي مجموعة من النصوص الدينية الأصلية المقدسة التي تكتسب صفة العمومية الكبيرة والشمولية على مدى الزمان والمكان أي أن مثل هذه النصوص يمكن إعادة قراءتها من جديد لتلائم التغيرات الاجتماعية الحاصلة في المجتمعات الإنسانية خصوصا تلك التي يعيش فيها أفراد هذه الديانة أو المؤمنين بها وهنالك من رجال الدين المؤهلين للنظر في هذه النصوص وإعادة قراءتها بما يتلائم مع مبادئ وأغراض الدفاع الاجتماعي في المجتمع العراقي موضوع بحثنا . وهذا ما يحصل مع كل الأديان السماوية التي يراد لها أن تواكب عمليات التغير الاجتماعي واتقاء ما ينسب إليها من ثبوت النص وملائمته فقط للفترة التي عاش فيها الكاريزما أو التي أي إعادة النظر في تاريخية النص الديني

المبحث الثالث الدفاع الاجتماعي في النظام الديني الاسلامي :

الإسلام نظام اجتماعي متكامل جاء بأحكام وقيم إنسانية من اجل مصلحة الفرد والمجتمع . ولم يقم الإسلام نظام المجتمع على أساس السلالة ، أو الإقليم ، أو القبيلة ، أو الجنس ، أو اللون وهي الأسس التي كانت تقوم عليها المجتمعات قبل مجيء الإسلام ، وإنما استحدثت أساسا وقت مجيء الإسلام لم تعرفه المجتمعات القائمة آنذاك قبل الإسلام وإنما أقام المجتمع على أساس العقيدة الإسلامية وجعل كل من يعتنقها عضوا في المجتمع المسلم من أي قبيلة كان أو من أي سلالة كان[١٩] .

والحق إن العقيدة الإسلامية حلت أساسا لبناء المجتمع لأنها أساس منطقي ومعقول وعادل لأنها مفتوحة أمام الجميع . فإذا اعتنق الإنسان الإسلام صار عضوا في المجتمع

[١٩] . منير حميد البياتي ، . فاضل شاكر النعيمي ، النظم الإسلامية ، مطبعة جامعة بغداد ، ط ٩ ، بغداد ١٩٨٧ .

المسلم وأصبحت هذه العقيدة الموجه لأفكاره وسلوكه وأفعاله وأحاطت هذه العقيدة بالتشريعات التي تضمن له نفسه وماله وعرضه ودينه و شعائره الدينية ما دام مسلما .

والإسلام أسس صلة وارتباط بين كل إنسان في المجتمع صلة قائمة على ا لتماسك والاتحاد ولذلك لتنقية النفوس من أسباب الخصومة من غل وحقد وحسد وغش وخداع من اجل إزالة أسباب الخصومة في قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢٠] .

والإسلام بصفته نظام اجتماعي متكامل من خلال تكامل أنظمته أي هناك تساند بعضها البعض فهي متكاملة يكمل بعضها الآخر وأساس ذلك أن الأحكام الشرعية التي تكون أنظمة الإسلام هي مشرعة ممن قبل واحد عليم حكيم هو الله) سبحانه تعالى[٢١] .

وقد جاء الإسلام منذ ثلاثة عشر قرنا بمبادئ الدفاع الاجتماعي أي قبل ظهور القوانين الوضعية فقد عمل الإسلام من خلال التشريعات والعقوبات التي شرعها في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من خلال العقوبات في الجرائم التي تقع على حدود الله سبحانه وتعالى وحقو ق الأفراد وهي تقسم إلى ثلاثة أنواع جرائم الحدود وجرائم القصاص والدية ، وجرائم التعزير .

فقد عمل الإسلام منذ البداية على تجفيف منابع الجريمة وإبعاد الفرد عن الجريمة بصورة تلقائية عن طريق الأحكام والعبادات فنظام العبادات الذي ينأى بالإنسان عن الفحشاء والمنكر ونظام الأخلاق الذي يصوغ الأفراد صياغة أخلاقية نحو المثل العليا ، والنظام الاجتماعي الذي يقدم للفرد تشريعات حياته الأسرية والاجتماعية . والنظام الاقتصادي الإسلامي الذي يقدم للفرد الضمانات المادية للعيش الكريم فينأى به عن السرقة ونحوها [٢٢] .

وجاء الإسلام بمبا دئ الدفاع الاجتماعي من خلال التشريعات والعقوبات ومن خلال التدابير الوقائية والعلاجية التي تؤمن الدفاع عن المجتمع ضج الجريمة والانحراف . والإسلام أهداف أساسية من خلال تحقيق مصالح الإنسان الدنيوية والأخروية ومضمون المصلحة في الإسلام هي جلب المنعة للفرد والجـ اعة ودفع المضرة عن الفرد والجماعة وكذلك الحفاظ على

---

[٢٠] القرآن الكريم : سورة الحشر ، لآيا ١٠ .

[٢١] نفس المصدر السابق ص ٨ .

[٢٢] حميد منير البياتي ، فاضل شاكر النعيمي ، النظم الإسلامية : مصدر سابق ص ٩ .

مقاصد الشريعة الإسلامية في حفظ الدين وحفظ النفس والعقل والمال والعرض . ونلاحظ ارتباط الإسلام بالدفاع عن المصلحة في قوله تعالى ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ [٢٣] ، وقوله تعالى ﴿ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ [٢٤]

و قوله تعالى ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾ [٢٥] ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [٢٦] . هذا إلى جانب نصوص كثيرة في القرآن الكريم تأمر بتحقيق الإصلاح وتدعو بالعمل الصالح و تذم المفسدة بأنواعها وتنحي على المفسدة والمفسدين وتقرر لهم عقوبات في الدنيا والآخرة .

والدفاع الاجتماعي يقصد به قديماً هو الدفاع عن المجتمع وحمايته من المجرم ولم يكن هناك اهتمام بالمجرم وصلاحه وإنما كان يضحى بالمجرم من اجل مصلحة الفرد . وبعد التطور العلمي في العلوم الإنسانية أصبح يهدف بالدفاع عن الجماعة وحماية حقوق الأفراد وكذلك إصلاح الجاني وتقديم العون له من أجل إصلاحه لأن سبب إجرامه وانحرافه يقع على عاتق المجتمع، فهو فرد مريض يعاني من مرض اجتماعي فلابد من علاجه وإصلاحه وإرجاعه إنسان صالح سوي في المجتمع .

فالدفاع الاجتماعي : هو مجموعة من المبادئ والقواعد تستهدف الدفاع عن المجتمع ككل والدفاع عمن أجرم من أفراده . والدفاع عن المجتمع ضد أي ظاهرة ضارة أو انحراف أو جريمة عن طريق الوقاية أو عن طريق التدابير المانعة أو العقابية وكذلك علاج المجرم ومعاملته معاملة إنسانية تأهيلية ليعود مواطناً صالحاً للمجتمع [٢٧] .

بعد الفتح الإسلامي للعراق في العام الخامس عشر للهجرة أصبحت الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد فيه للقانون والعقوبات في هذه الشريعة قسمان عقوبات دنيوية وعقوبات أخروية . والعقوبات الدنيوية تنقسم إلى قسمين عقوبات م حددة وهي العقوبات البدنية كالقتل والقطع والجلد، المخصصة لجرائم ذات خطر شديد على المجتمع وتطبق هذه العقوبات بحق

---

[٢٣] سورة هود ، الآية ٨٨ .
[٢٤] سورة البقرة ، الآية ٢٢٠ .
[٢٥] سورة الأعراف ، الآية ٥٦ .
[٢٦] - سورة الأعراف . الآية ١٧٠ .
[٢٧] - جابر عوض سعيد ، الانحراف والجريمة في عالم متغير ، المكتب الجامعي الحديث ، الكتاب الثاني ، ٢٠٠٤ ص ٢١٥ .

مرتكبي جرائم الحدود والقصاص . وعقوبات غير محددة وهي العقوبات التي يترك فيها التقدير لأولي الأمر يقدرها بقدر الجريمة مع مراعاة الظروف التي أحاطت؟ وتشمل كل فعل محرم لم يرد به نص بعقوبة دنيوية [٢٨] . كما تشمل الجرائم التي وردت فيها نصوص ولكن لم تتوافر شرود هذه النصوص أو وجدت شبهة دارئة للحد [٢٩] . ومن الملاحظ أن العقوبات البدنية باعتبارها تدابير وقائية تتبوأ مكان الصدارة في التشريع الجنائي الإسلامي لكونها تح مي الضرورات الحتمية في الإسلام وهي حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض .

الخاتمة

أن الدواعي التي دفعت بالباحث إلى إيجاد مثل هذا النمط من التماثل بين التعاليم الدينية سواء تلك المتمثلة بالنصوص المقدسة الأصلية أو مجموعة السلوكيات التي ينتجها الكاريزما اذ وصف عند ذلك بالأسوة الحسنة للمؤمنين بهذا الدين أو ذاك . فلأنه على يقين تام إن الدين يعد واحدا من أكثر العوامل الاجتماعية فاعلية في سلوك الأفراد والجماعات في المجتمعات الإنسانية وحتى المجتمعات العلمانية أيضا وبالتالي فيمكننا استغلال مثل هذه القوة من اجل تفع ل الالتزام الطوعي بمبادئ و عمليات الدفاع الاجتماعي اذا ما اخذت صفتها الدينية هذا من جهة أما من جهة أخرى فان واحدا من أهم عوامل نشوء علم الاجتماع الديني كواحد من تخصصات علم الاجتماع العام هو النظر في إمكانية استخدام الدين كعامل ضبط داخلي يسهم إسهاما فاعلا ي حل المشكلات الاجتماعية او الحد من اثارها السلبية في اقل تقدير أو تجنب اتساعها في المجتمعات .

بين الأفراد المتدينين الذين يشكلون الغالبية العظمى في جميع المجتمعات إذ إنهم يشكلون القاعدة الاجتماعية الأوسع التي تحتل اكبر مرتبة في التوزيع الديموغرافي للمجتمِ ات الإنسانية بشكل عام . وفي المجتمعات الشرقية التي تعد المجتمعات الإسلامية والعربية منها بشكل عام والمجتمع العراقي منها بشكل خاص . وان ما تحتويه هذه المجتمعات من التعددية الدينية التي تشكل النسبة الأكبر بين أفراد المجتمع يمكن أن تنتج نظاما للدفاع الاجتماعي لذي يقوم على مجموعة القيم الإنسانية المشتركة بين جميع الأديان التي ما جاءت إلا لهداية الإنسان إلى الطريق السوي وخلق السعادة الاجتماعية في الحياة الدنيا التي تؤهل المؤمنين

[٢٨] – عبد الأمير حسن جنيِ ، الإفراج الشرطي في العراق ، أطروحة دكتورا ، غير مشورة كلية القانون جامعة بغدا ٩٧٩ ص ٣٣

[٢٩] – المصدر نفسه

إلى نيل رضا الله والجنة في الحياة الأخرى من خلال القيام بواجباتهم الدينية على أكمل وج ه فضلا عن التراحم وهداية بعضهم للبعض الآخر إلى الطريق المؤدية إلى ملكوت الله والخلاص .

مصادر البحث

١ القران الكريم

٢ أحمد الخشاب، علم الاجتماع الديني مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العملية، الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، د ٢ ١٩٧٠ .

٣ جابر عوض سعيد، الانحر ف والجريمة في عالم متغير، المكتب الجامعي الحديث، الكتاب الثاني ٢٠٠٤ .

٤ حسن الساعاتي، علم الاجتماع القانوني، القاهرة، النهضة المصرية ١٩٥١ .

٥ - سامية حسن الساعاتي، الجريمة والمجتمع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣

٦ - رشيد خيون، الأديان والمذاهب بالعراق، مطبعة روح الأمين، بدون سنة نشر .

٧ زهراء عزة، التوزيع الجغرافي للأقليات الدينية في العراق، جامعة القادسية – الآداب ٢٠١٠ .

٨ سمر عبد وحواح، صابئة العراق دراسة في جغرافية المكان، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب جامعة بغداد ٢٠٠٣ .

٩ صادق عبد علي الركابي، لمحات عن أديان العالم، مكتبة مدبولي، القاهرة، مطابع الشرطة ٢٠٠٧ .

١٠ – عبد الله الخريجي، علم الاجتماع الديني، جدة، د ١٩٩٠ .

١١ – لقاء أجراه الباحث مع رئيس مندأ الصابئة في محافظة ذي قار الدكتور سامر نعيم بتأريخ ١ / ٧ / ٢٠١١ .

١٢ – لقاء أجراه الباحث مع الدكتور سامر نعيم حنظل رئيس طائفة رئيس طائفة مجلس شؤون الصابئة المندائيين في محافظة ذي قار بتأريخ ١ ٥ ٢٠١١ .

١٣ – مير بصري، إعلام اليهود في العراق الحديث، دار الوراق للنشر، لندن ٢٠٠٦ .

١٤ – منير حميد البياتي ، ٠ فاضل شاكر النعيمي ، النظم الإسلامية ، مطبعة جامعة بغداد ، د ٩ ، بغداد ١٩٨٧ .